

رفقا بشباب الغد ورجال المستقبل

الصغار لم يكن الباعث الذي دعاه لإرسال أولاده لا هذا السبب ولا ذاك . إنما حب الشهرة والتفاخر ، ثم أنه يأنف وهو التاجر الكبير والغنى الذي طبقت شهرته طول البلاد وعرضها أن يدرس أولاده في مدارس مجانية لا فرق بينهم وبين أولاد الصعاليك من فقراء القوم .

سادتي ، أعمامى ، إخوانى ، عشيرتى بنى وطنى ، حرام والله كل الحرام . إن التقليد شيء والقومية شيء اجدى ! إن حب التجارة المتغلغل في نفوسنا واقتناء المال المالك علينا أفدتنا وأبصارنا شيء والوطنية شيء ألزم ! إن حب التفاخر شيء والدين شيء أهم . فإذا كان التقليد يستهويكم مرة فيجب أن تستهويكم القومية مئة مرة ، وإذا كانت التجارة وحب المال يشغلان عليكم أذهانكم مرة فيجب أن يستحوذ عليكم حب الوطن ألف مرة . وإذا كانت المفاخرة من شيمكم مرة فيجب أن يكون الدين أمام أعينكم مئة ألف مرة . ثم إن أولادكم ليسوا ملكا لكم أنتم وحدكم إنهم وجهاء القوم وزعمائهم وقادتهم وذوو الرأى فيهم وفى بلادهم وكل شؤونهم بحكم مركزكم أنتم ، وكذلك فإن الوطن والأمة شركاء معكم فيهم ، لذلك فيجب أن يتربوا ويتعلموا تربية وتعلما يرضى الله والوطن والأمة . ولا أظن أن الطريقة التي سلكتموها تنفي بذلك الغرض . بل إننى أعتقد إنها على تمام العكس من ذلك .

تصوروا أن طفلا لم يتجاوز السادسة أو السابعة ولا أريد أن أقول الخامسة لا يزال مغمض العينين صافى الخواطر ، فج العقلية ، يمرى به على هذا البعد الشاسع عن أهله وذويه ، ويحرم من عطف والديه وتكاد تحجب عن أسماعه حتى لغة آبائه وأجداده « إنه لإنهم لو تعلمون عظيم » وافسحوا لى صدوركم هنا لأقص عليكم حقيقة واقعة أقسم لكم بالله إننى سأرويها لكم كما هى بقدر ما تسعنى الذاكرة لأنها حدثت منذ ثلاثة شهور تقريبا وإن كان فيها بعض التحريف الطفيف فإن اللام على ذلك إنما هى الذاكرة والواقعة وما أدراك ما الواقعة كما يجب أن أسميها هى : كنت جالسا فى مكتب بيت الكويت ولسوء الحظ كان المكتب خاليا إلا منى .

فدخل الطفل وكانت تبدو عليه علامات الاكتئاب والتردد وضيق الصدر وأخذ يدنو منى دنو الخائف المترقب ولما قرب أمسكت بيده وبادرته :

« بسم الله ما شاء الله عيني عليهم باردة ، شايه الأولاد الصغار فلان وفلان وعلان أولاد الفلاينة وزيد وعبيد أولاد بكر .

اشعلهمهم .

هو ما تدرون راحوا مصر .

والله يقولون راحوا يتعلمون عنكرى والصحيح أن ها الأيام ما ميش أحسن من العنكرى أى والله وإننى صاجه .

وتخرج خالى أم حسين .

« ويدخل من السوق أبو فلان حارسه الله بعد منتصف النهار بساعتين أو ثلاث حاط بشته على راسه وتعبان من أذية السوق ومصائب البضائع وتقلبات الأسعار وكثرة الوارد والصادر وأخبار تجارة الذهب .

ولا يكاد يجلس على وجبة الغداء حتى تفأخه أم الأولاد .

« ماسمعت الفلاينة ودوا عيالهم مصر يدرسونهم عنكرى .

طيب وبعدين ؟

وبعدين هم أحسن منا وألا أعنى منا وألا يحبون أولادهم أكثر مما نحب أولادنا وألا يفهموا أكثر منا وألا أولادهم أفهم من أولادنا ؟

« أنا كالت لك أولادنا لازم يروحون من بكره .

لكن ذول صغار ولا هم متعودين على السفر وكيف يصرون عنا ونصبر عنهم ما تخليهم يتعلمون هنا وإذا كان الله يعلمهم عنكرى يعرفون هنا والا هناك .

« أنا كالت وانت كيفك لأن لو ما وديناهم يكلون عنا بخلاء ، وشوف ما بيون يصرفون على أولادهم . ومخليهم فى مدارس الكويت بالجمان علشان ما يخسرون بيزات » .

هذا ما أظن (وبعض الظن إثم) هو الباعث لمعظم ذوى أمور الصغار على إرسالهم إلى تلك المدارس الأجنبية على أن البعض الآخر يظهر أنه أرسل أولاده بعد أن فكر وقدر وعرف أن اللغة الإنجليزية مهمة جداً فى الكويت ، وبالأخص لإدارة أعماله التجارية الواسعة التي يمتلكها .

زد على ذلك أن أولاده سيتربون تربية انجليزية محضة وهو يسمع عن تلك التربية وما لها من شهرة وسمعة طيبة يشهد لها العالم أجمع . وهناك أيضاً فريق ثالث من ذوى أمور

أشولوك

كويس

ليش ما رحت المدرسة ؟

عيان .

إيش فيك ؟

بطى تعورنى ؟

بطى تعورنى وإلا يعورنى .

كله واحد .

طيب ما رحت لطيب ؟

بلا ودانى المستشفى .

من وداك ؟

المدرسة .

المدرسة ودتنى والأودانى .

زى بعضه .

وهنا تميت أن يكون أحداً معى لسمع ويرى كيف يجنى الآباء على الأبناء من حيث يريدون نفعهم ، والذنب هنا ليس ذنب الطفل إنما هو ذنب الوسط الذى يعيش فيه . إذ أن وسطه لا يسمع فيه غير الإنجليزية ، وإذا صادف وسمع العربية فإنه يسمعها من أبناء الإفرنج الذين يكونون غالبية طلاب هذه المدارس إن لم يكن كل طلابها منهم ، والإفرنج كاتعلمون يذكرون المؤنث ويؤنثون المذكر ولا ينسبون الضمائر كما يجب ولا ينطقون الضاد أو الحاء لأن لغتهم خلو من هذين الحرفين أما الجناية على الدين فلا شك أن الواحد من هؤلاء الصغار سيشب ويكبر ويبلغ الخامسة عشر أو العشرين وهو لا يعرف فرائض الوضوء ولا يحفظ من القرآن اللهم إلا الفاتحة ! وقد لا يحفظها . لأننى كما أظن انه ليس من برامج المدارس الأجنبية نصوص دينية للحفظ وهى وإن حوت بعض الشيء من هذا أو كان فيها مسجد فلا شك بأن هذا أو ذاك سيكون (منظر بلا مخبر) أو هو من باب الدعاية أقرب وهذا رأى والله أعلم . غير إنى قد خالطت بعض خريجي المدارس الأجنبية وعرفتهم .

وأما الجناية على القومية فيكفى لتحرى مقدار ذلك أن تسأل الواحد منهم بعد أربع أو خمس سنين أوحق بعد التخرج . من هو خالد بن الوليد ومن هو طارق بن زياد أو ماذا تعرف عن الثورة العربية الكبرى أوحق عن عمر بن الخطاب فربما أنه لا يعرف عنه غير اسمه . وربما أن ولى أمره مجهل بعض التاريخ العربى ، غير إن له العذر فهو لم يدرس فى مدارس نظامية ، ولم يدخل كليات أو جامعات . أما هو

فليس له عذر فإنه معدود علينا من المتعلمين . وأنا لا أنكر إنه قد يكون للتاريخ العربى والإسلامى نصيب من برامج التعليم فى مثل هذه المدارس الافرنجية غير أنه وإن وجد فإنه ولا شك سيكون طفيفاً سطحياً .

فمن المعروف سلفاً أن تلك المدارس لم تنشأ لهذا وأمثاله إنما أنشئت ! وهنا أمسك عن الجواب وأحيلكم إلى المؤتمر الإسلامى الذى انعقد فى كراتشى منذ عام أو عامين ، لست أدرى ، غير أنى أعتقد إنه يجب أن نطلع على قراراته بصفتنا مسلمين ولو من باب العلم بالشيء .

أما عن التربية الإنجليزية فحدث ولا حرج فأنا أول المعترفين بعلو مكاتنها وسمو رقيها وكالها ولكن لا يغيب عن بالنا إن لكل زمان دولة ورجال ؛ أى إن ما يستحسن عند أمة قد يستهجن عند غيرها ، وما يستجيب استعماله فى بلد قد يستقبح فى بلد آخر ، وما يستساغ عند شعب قد يستنكر عند شعب آخر ، والأمثلة على ذلك كثيرة وسأذكر مثلاً واحداً فكلنا يعرف أن من عادة بعض الأفرنج البرود ، وعدم التدخل فيما لا يعنيه . حتى أنه إذا رأى اثنين من معارفه وأبناء جاره ينشاجران أو يتضاربان فإنه يمر عليهما مرا الكرام وكأنه لم ير ولم يسمع ولم يعب شيء مما حوله . فهل نرضى نحن العرب بمثل هذا لا أظن ذلك ولا شك بأننا سنقول عن مثل ذلك الشخص إنه عديم الاحساس والمروءة أنا أنى لثم الطباع نعم أننا نسمع كثيراً إن أبناء الملوك والأمراء والأعيان يرسلون لتلقى العلم فى المدارس الأجنبية ، ولكن يجب أن نعرف أن أمثال هؤلاء يكون بجانبهم مربون ومرافقون ، فهو يدرس فى المدارس الأجنبية علومها ويتلقى فى البيت على يد مراقبيه ومربيه علوم بلده وسيرة قومه وأبائه وأجداده وأصول دينه . أو أن هؤلاء الأبناء يرسلون إلى تلك المدارس بعد أن ينالوا القسط اللازم عليهم معرفته فى أدب لغتهم وقومهم ومعرفة علوم أمتهم وتاريخها ، وبعد أن يشتد ساعدهم وتفتح أبصارهم وبصيرتهم ، حتى يميزوا السمين من الغث ، والطيب من الخبيث .

سادتى ، أعمامى ، إخوانى ، عشيرتى ، بنى وطنى ، أرجو أن لا أكون أثقلت عليكم ، كما أرجو أن لا يحمل قصدى حمل الرجعية والتزمت ، لا والله لست رجعيّاً ولا مترمّناً ومالهذا قصدت . إنما هى عواطف وخواطر رأيت من واجبي أن أضعها أمامكم على سبيل التذكير لعل وعسى أن تأتى بشمرة إن لم يكن بالنسبة لما تم فعلى الأقل لمن يفكر أو فكر ، ولم ينفذ الأمر بعد ، وسامح الله صاحب المثل العامى الذى يقول (كل شيء أفرنجى برنجى) .

عبد الرحمن محمد الخال